ثورة البند المجهولة

تحدثتُ عن إنجاز الحقبة «الظاهر»، أما إنجازها الحقيقي المختفي فهو شعر البند، الذي يمثل الثورة الثانية في الشعر العربي بعد ثورة الموشحات. إن عجبي لا ينتهي من الجدل الذي لا يزال محتدماً عن ولادة شعر التفعيلة في هذا البلد العربي أو ذاك، وفي هذه السنة الميلادية أو تلك، من القرن العشرين الميلادي، وأمامنا شعر تفعيلة يعود أصله إلى قرابة ألف سنة. لابد من وضع الأمور في نصابها ولابد من أن أقول، بصراحة ما بعدها صراحة، إن شعر التفعيلة لم يولد في العشرينيات أوالثلاثينيات أو الأربعينات من القرن الماضي، بل ولد قبل عشرة قرون مع مولد شعر البند. قبل أن أمضي في الحديث عن شعر البند أودّ أن أتوقف عن مثل واحد من هذا الشعر:

أيها الراقد في الظلمة..
نبّه طَرف الفكرةِ..
من رقدة ذي الغفلة،
وانظرْ
أثر القُدرة
واجل..
غَسق الحيرةِ..

في فجر سنا الخبرةِ..

.....

.....

هذا الأفق الأدكنُ..

في ذا الصُنعِ المتقنِ..

والسبعِ السماواتِ.. ففي ذلك آثارُ هدى (١)

لنا أن نناقش المضمون كما نشاء، ولكن ليس لنا أن ننكر أن هذا هو شعر التفعيلة، بشحمه ولحمه!، شعر التفعيلة الذي لا زلنا مصرّين على أنه ولد في أربعينات القرن العشرين.

لا نعرف إلاّ أقل من القليل عن هذه الثورة الشعرية. ويكاد مجمل ما نعرفه يندرج، في هذه الفقرة التي كتبها باحث أولى شعر البند الكثير من الاهتمام:

> **ظهر البند في القرن العاشر الميلادي، وازدهر بعد حوالي قرن من ذلك في العراق والخليج العربي، كما عرفته بلاد فارس، وإن بشكل مختلف، وقد اختلف الباحثون في تعريفه وخصائصه وعروضه، كما اختلفوا في أصوله، لكن البند اختفى منذ نهاية عهد المماليك الأول ولم يعد يلجأ إليه الشعراء** (٢).

---

(١) انظر: جليل العطيّة، «فن البند.. لماذا هجره الشعراء؟»، **الشرق الأوسط**، ٢٠ / ١١ / ١٩٩٨، ص ٢٠ . وانظر المزيد من نماذج شعر البند في الملحق رقم ٢ .

(٢) انظر المرجع والصفحة نفسيهما.

ظهـرت ثورة البند، من غـيـر أن نعـرف كـيف ظهـرت ولماذا ظهرت، واختفت دون أن نعرف كيف ولماذا.

إن صمت الدارسين والنقاد أمام شعر البند ظاهرة مخجلة محيرة. هنا شعراء تمردوا - تماماً - على البحور القائمة ودخلوا في تجارب لغوية مذهلة، ومع ذلك يمر النقاد والدارسون عليهم، وعلى ما جاؤوا به من شعر جديد مرور الكرام، في الوقت الذي يحبّرون فيه مئات الصفحات عن تجربة واحدة في شعر التفعيلة وُلدتْ في عشرينات القرن العشرين. هناك عدة أسباب تذكر لتفسير هذا التجاهل منها: مضامين البند الضيقة وعزلته الأقليمية وظهور أنواع تجديد أخرى، كالمواليا، غطت عليه [١].

لا أستطيع أن أنكر صحّة هذا التعليل، ولكني أود أن أضيف سبباً جديداً ذا شقين. أما الشّق الأول فهو جهل الشعراء والنقاد، عموماً وإجمالاً، بشعر البند. وأكتفي، هنا، بمثلين: تذكر الشاعرة الباحثة العربية الكبيرة نازك الملائكة أنها لم تسمع بشعر البند إلاّ سنة ١٩٥٣ [٢]، أي بعد أن طبقت شهرتها الآفاق. وأعترف أنا، بخجل لا أخجل من إعلانه، أني قرأت أول نموذج من نماذج شعر البند، بالمصادفة، بعد أن تجاوزت الأربعين وأصدرتُ عدة دواوين

---

(١) انظر المرجع والصفحة نفسيهما. وقد بحثت مع أستاذي الشاعر الناقد الكبير إبراهيم العريّض سبب خمول شعر البند، وكان رأيه أن التزامه الضيّق بموضوعات محصورة من دون تجديد في المضمون هو سبب انطفائه، وفي نفسي من هذا التعليل شيء.

(٢) انظر المرجع والصفحة نفسيهما.

شعرية. والشق الثاني يتعلق بالتوقيت. كان البند ثورة جاءت قبل أوانها، في زمن لم يكن فيه أحد مستعداً لقبول هذا التجديد الجذري. كأي ثورة تجيء قبل الأوان، ذهبت ثورة البند دون أن تترك أثراً كبيراً خلفها.

وكم أسعدني في غمار مؤامرة الصمت المحيطة بشعر البند أن أجد شاعراً وباحثاً شهيراً هو مصطفى جمال الدين ينصف شعر البند ويعتبره البداية الفعلية لشعر التفعيلة:

> ***الخلاصة أن كلا من البند والشعر الحر جار على أساس التفعيلة الواحدة التي قد تتكرر في أشطره مرة أو مرتين أو أكثر، وأنهما في الواقع مصطلحان لفن واحد: هو الالتزام بإيقاع التفعيلة، في مقابل إيقاع الشطر في شكلنا التقليدي، وقد تواضع القدماء فسموه (بنداً) وترفع الشباب المحدثون - ولعل الحق معهم - فسموه (شعراً حراً) أو شعراً منطلقاً*** [١].

ويذهب الشاعر الباحث أبعد من ذلك فيعلن: «إذن فكل ما حدث من ضجة حول حركة الشعر وأنها حركة حديثة (ولد أول نموذج لها في بيت السيدة نازك الملائكة، أو بدر السياب أو خليل شيبوب) زوبعة لا واقع» [٢].

---

(١) مصطفى جمال الدين، الإيقاع في الشعر العربي من البند إلى التفعيلة (النجف: الطبعة الثانية، د. ن. ١٩٧٤)، ص ٢٧٧ .

(٢) انظر المرجع والصفحة نفسيهما.

وبقدر ما سعدت بهذا الرأي الذي أتفق معه كلية، سعدت برأي مناقض نفى عن البند أية صفة إبداعية أو تجديدية: لم يكن البند خلقاً إيقاعياً ولا تمرداً ولا ثورة على حدود الأجناس الأدبية، إنه كان ضرباً من التلهي والعبث ووضع أشياء يغالطون بها.. [١].

ويرى هذا الباحث أن كل إيقاعات البند وتشكيلاته ما هي إلاّ «استنساخ إيقاعات غسل القدامى أيدهم (كذا) وآذانهم عنها ومنها» [٢] ويقتضي الإنصاف أن نضيف أن غضب هذا الباحث المنفعل على شعر البند هو جزء من غضب شامل على كل ما يخرج عن عمود الشعر الأصيل.

إن الدراسات التي تناولت شعر البند لا تكاد تتجاوز أصابع اليد الواحدة [٣]. وأعتقد أن الأوان قد آن لدراسات موضوعية جديدة تولي البند ما يستحقّه من اهتمام. كما أعتقد أن الأوان قد آن لصدور مجموعة من المختارات تُكرّس بأكملها لشعر البند. وحتى يتم ذلك، أجد أن واجبي يتطلب مني أن أقف هنا لأحيي الشعراء المجهولين الذي أشعلوا ثورة حقيقية كبرى في الشعر العربي ومضوا دون أن يشعر أحد بهم أو بثورتهم.

---

(١) قرشي عباس دندراوي، **البند واستنساخ الإيقاعات المزاحة**، (القاهرة: مكتبة الآداب، ١٩٩٩م)، ص ٢٧٧ .

(٢) المرجع السابق، ص ٢١ .

(٣) تكاد تجد المراجع التي تناولت شعر البند كلها في مقال جليل العطية الذي سبقت الإشارة إليه.

وإذا كان شعر البند يحتاج إلى من ينقب، من جديد، في مناجمه المطمورة، فشعر الحقبة بأكمله يحتاج إلى المزيد من التحليل. أتفق كل الاتفاق مع بكري شيخ أمين حين يقول: «ليس بإمكان باحث منصف أن يصف هذا العصر بصفة واحدة، كما لا يستطيع أن يحكم عليه حكماً واحداً» [١]، وأضيف: وهل هناك أقلّ من الباحثين المنصفين؟!

(١) بكري شيخ أمين، مرجع سابق، ص ٣٢٠ .